ثوراتُنا الثلاث تعوزُهنَّ رابعة

تعيش الجمهورية العربية المتحدة اليوم في ثورات ثلاث كما قال بحق وفعل بصدق مثيرها العظيم جمال عبد الناصر: ثورة سياسية تحقق الحرية وتثبت الاستقلال على الوحدة والحيدة. وثورة اجتماعية تحقق الديمقراطية وتبني المجتمع على المساواة والتآخي. وثورة اقتصادية تحقق الاشتراكية وتقيم الثروة على العدل والتعاون.

وهذه الثورات الثلاث هي جماع القوى لعاقلة العاملة للشعب أخرجتها من السكون والكمون والتعطل يد مصرفة حازمة، تحكم لتصلح، وتهدم لتبني، وتحرق لتزرع.

فالبلاد كلها من أسوان إلى القامشلي [1] عزمة لا تني، وحركة لا تفتر، وزحف لا يقف. ولكن هذه القوى الثائرة المعمرة لا تستطيع وحدها مهما تنشئ وتنتج أن تكفل لابن آدم المجتمع الذي يجدر به إلا إذا اعتبرناه حيوانًا له معدة وليس له قلب، وله شهوة وليس له عقل، لا إنسانًا ينزل بين خلق الله في المنزلة الوسط بين البهيم والملك، يكون بماديته مرتبطًا بالأرض، وبروحيته متصلاً بالمساء.

نعم، تستطيع الثورات بقواها المادية والفكرية أن تلين الحديد، وتزرع الصخر، وتقهر النيل، وتنشر المعرفة، وتبسط الرخاء، وتيسر الأداة والحياة للعامل والفلاح، وتوفر القوة والعدة للجيش والشرطة؛ ولكنها لا تستطيع أن تضع التقوى في القلب الأغلف، ولا أن تبعث الحياة في الضمير الميت. أننا أصبحنا في مدى ثماني سنوات أمة على وجه الدنيا وفي جبهة الركب، نقول فنسمع، ونطلب فنجاب، ونعمل فنجد، ونزرع فنحصد، في ظل حكم ديمقراطي عادل، ونظام اشتراكي معتدل، يضمنان للفرد مساعدة الكل، ويكفلان للكل مساندة الفرد، ثم لا يزال فينا المرتشي والمختلس واللص والمزور والمستهتر والهدام والمنافق والخائن، ومن يستحب العمى على الهدى، ويؤثر منفعة نفسه على منفعة الناس. لابد إذن لهذه الثورات الثلاثة من ثورة رابعة تقوم لهن مقام الروح الملهم والشعاع الهادي: هي الثورة الدينية ! ولعل الذوق

(1) القامشلي أقصى بلد في شمال سورية .

التقي لا يستسيغ ذكر الثورة بجانب الدين، لأن مفهومها الذي استقر طويلا في الأذهان يتضمن التمرد والتهور والاستبداد والاضطهاد والقتل؛ ولكن هذا المفهوم قد غيرته الثورة الناصرية – وهي الثورة الأولى في بابها من تاريخ الإنسان – فلم يبق منه إلا التحرير والتطهير والتعمير والتطوير والإصلاح. لذلك لم تخضب صحائفها البيض بالبقع الحمر، ولم تسبل على منكرات العهد الذاهب غير ستار المعروف. وعلى هذا المفهوم الجديد للثورة زيد ثورة الدين. والدين بطبيعته وحقيقته ثورة مستمرة: ثورة على الفساد والشر، وحرب على البغي والعدوان. وما دامت هذه الكبائر في الأرض فالثورة دائمة والحرب قائمة؛ إنما زيد إذكاء شعلتها وإعلاء سناها لتجد فيها ثورتنا العامة القبس الذي يحيها بحرارته ويهديها بنوره. والمصلح الذي أرسله الله على فترة من المصلحين ليجدد ما أندرس ويبين ما انطمس ويقيم ما انهار، هو الذي يستطيع أن يرفع الإعجام عن كلمة الله، ويدفع الإبهام عن رسالة محمد. وهو يدرك فيما أدرك من فساد الحكم وعبق السياسة وبغى الإقطاع أن الوازع الديني قد ضعف في نفس المسلم، لأن نور الإسلام قد انكفأ في قلبه أو انطفأ في ضميره، فلم يعد إسلامه إسلام الصدر الأول الذي فتح الدنيا في عهده وأضوي العالم إلى كنفه؛ وإنما أصبح خلطا عجيبا من العقيدة السالفة والصوفية الزائفة والأساطير الموروثة والتقاليد الدخيلة. يوهم معتقديه أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا، وأن المسلم ليس من همه المادة، وأن ما هم عليه من رتق العقيدة وظلام الفكر وخدر الشعوب إنما هو روح الدين ورضا الله وطريق الجنة. ثم لا يعدمون أن يجدوا مصدقا لما يتوهمون في بعض ما يسمعون أو يقرءون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصنوعة والآراء الملفقة؛ فإن من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه أن امتزجت به كل نحلة، وسرت إليه كل علة، وتراءت فيه كل حالة. فكل امرئ واجد فيه ما يلاءم استعداده ويناسب فهمه. فالثورة الدينية بالمعنى الذي ذكرته هي تحرير العقل من الاقتداء العاجز والمتابعة المسلمة، وتطهير السنة من الأحاديث المكذوبة والأقوال المشوبة، وتطور الفقه في حدود ما أنزل الله وبلع الرسول، ليطابق مقضيات العصر، ويجابه مشكلات الحضارة، ثم عرض هذا الإسلام الصادق الصافي على الناس في معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم.

ذلك ما يجب أن يدخل في تخطيط الجمهورية للسنين العشر القادمة؛ فإن النص في الدستور على أن الإسلام دين الدولة لا يحقق معناه إلا إذا كان للدين الأثر الفعال في التربية والتعليم والتشريع والسلوك. والأزهر بفضل ما مكن الله له في التاريخ، وهيأ له من الموضع، وأتاح له من الكفاية، أقدر ورَّاث النبوة على تبليغ الرسالة العظمى وتوجيه الأمة الكبرى إذا تسنى له أن يؤدي رسالته على المرسوم الذي رسمته الثورة، وبالمفهوم الذي أعلنه المؤتمر العام للاتحاد القومي إذ قال: " يعلن المؤتمر – إيمانا بالدور الخطير الذي يؤديه الأزهر الشريف في معركتنا المقدسة دفاعا عن عروبتنا وقيمنا الروحية – تمسكه بضرورة العمل على دعم هذا المعهد الإسلامي الجليل حتى يستمر منارة ترسل أشعتها العلمية والروحية إلى رجاء العالم، - وتمكينا له من مسايرة وتطورنا الحاضر – يوصي المؤتمر بضرورة العمل على أن تؤمن للأزهر الوسائل ليكون أداة صالحة لخدمة أهدافنا الروحية والقومية من تحرير الوطن العربي، وتحقيق وحدته الشاملة في إطار مفهومات القومية الحقيقية ".

* * * * *

أما رسالة الأزهر فجماعها حفظ التراث الإسلامي وتنقيته من العقائد الواعظة والمذاهب الباطلة والبدع الضارة، ثم نشره على العالم عن طريق التعليم والتأليف والترجمة والدعوة.

وسبيله إلى ذلك – فيما أرى – أن يمكن من جمع هذا التراث المتفرق المشوش في ثلاثة أسفار: سفر في التفسير تشرح فيه الآيات الكريمة على ضوء الصحيحة والعلم الثابت، ويجمع بين ما صح من أقوال السلف وما صلح من آراء الخلف. وسفر في الحديث يدون به ما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ويستعان على شرحه بعلوم التاريخ والاجتماع والأخلاق والفلسفة. وسفر في الفقه يشمل ما تواتر من الأحكام وصح من المذاهب وسلم من الآراء؛ ثم يوضع متنه مواد كالقانون ويشرح شرحا فنيا يستوعب أصوله ويستقضي فروعه في غير حشو ولا استطراد ولا تعمية.

هذه الأسفار الثلاثة ستكون مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى، ثم يجرد منها مختصرات تدرس في المدارس وتنشر في الجمهور وتترجم مع المطولات إلى

أكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب، ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام أو يريد أن يعرفه.

أما ما عدا ذلك فما كان صحيحا بي في المكتبات ليرجع إليه المتخصص والمؤرخ، وما كان زائفا صنع به ما صنع عثمان في كل مصحف غير مصحفه، فإن الإبقاء على الزيف من الأحاديث والآراء لَبْس للحق بالباطل، وطمس للنور بالظلام، وتعمية للطريق على السالك.

أذكر أن أحد الأساتذة الكبار عليه رحمة الله قدن رسالة بالفرنسية إلى (السربون) عن (حال المرأة في الإسلام) نال فيها من خلق الرسول وشرعه وسلوكه. فلما أنكر عليه من أنكر استدل على كل ما ادعى بأحاديث مرورية في طبقات ابن سعد وفي الشفاء للقاضي عياض. ولما ردوا حجته بأن هذه الأحاديث موضوعة قال: وما يدريني أنها موضوعة والكتب التي نقلت عنها معتمدة متداولة؟ وأشباه هذا الأستاذ ممن ضالتهم النقول وخدعتهم الكتب يخرجون على الناس كل حين بالرأي المجازف أو الكتاب المخالف ثم لا ينبههم نقاد الحديث إلى أن ما نقلوه منحول أو مدخول إلا بعد أن يكون الرأي قد سار والكتاب قد انتشر ! فلو أن هذه الأحاديث المفتراة لم تكن منشورة على العيون يقرأها من لا يميز بين ما اتصل منها وما انقطع لما طارت الشبه والظنون حول العقيدة. فالثورة الرابعة غرض من أغراض الثورة، وضرورة من ضرورات الإصلاح، ووجيهة من وجانب الأزهر. فإذا شبت مع الثورات الأخرى فكسحت الغثاء ونفت الخبث وطهرت شريعة الله من سموم البدع، ونقتها من شوائب الفرق والشيع، فوردها الناس صافية كقطرة المزن خالصة كفطرة الله، كانت جديرة بأن تبني للعرب المجتمع المثالي الذي يسير على صراط الله بقيادة الحق ورعاية العلم ورقابة الضمير، فلا تجد فيه متى يكتمل بناؤه المخازي التي تقترف في الدواوين، ولا المآسي التي تمثل في البيوت، ولا المهازل التي تشاهد في الطرق، ولا المساوئ التي تحدث في التعامل. ويومئذ يغتبط المصلحون بفتح الثورة، ويعتز المواطنون بعز الوطن، وبفرح المؤمنون بنصر الله.